التسامح الدينى.. عند ابن رشد

د. الأب يوحنا قلتة (*)

١ ـ يبدو عنوان المقال، غريباً بعض الشىء، فالتسامح الدينى تعبير مستحدث لم تعرفه العصور الوسطى الذى عاش فيها فيلسوفنا ابن رشد، عصور الإيمان والحرب، فلقد عاصر فى أسبانيا وفى قرطبة، الأمير يستعد للهجوم على المسيحيين فى حرب دينية.(١)

وقد ولد أبو الوليد محمد بن محمود المعروف بابن رشد فى قرطبة سنة (٥٢٠ هـ = ١١٢٦م) عرف عند الغربيين باسم «أفرويس» فى عائلة اشتهرت بوظيفة القضاء، فقد كان جده وأبوه من مشاهير الفقهاء «قاضى القضاة»، وتلقى ابن رشد ثقافة كاملة فى كل علوم عصره، فى الإلهيات والفقه والشعر والطب والرياضيات، والفلك والفلسفة، وأصبح فى سنة (٥٦٥ هـ = ١١٦٩ م) قاضياً على أشبيلية وأنهى فى السنة ذاتها كتاب الحيوان وشرح أوسط لكتاب الطبيعيات، كما أنهى فى سنة (٥٧٠ هـ = ١١٧٤ م) كتاب الجوامع فى الخطابة، وفى ما بعد الطبيعة كما ألّف فى سنة (٥٧٤ هـ = ١١٧٨ م) مقالة فى الجرم السماوى.

وبالرغم من أن ابن رشد كان يراعى أحكام الشريعة فى قضائه إلا أن آراءه الفلسفية أثارت عليه ريبة الفقهاء، فحددت إقامته فى قرية «أليسانه» قرب قرطبة حيث تعرض لاضطهاد شديد ومات معزولاً فى التاسع من صفر سنة (٥٩٥ هـ = ١٠ من أكتوبر ١١٩٨م). ونقل رفاته إلى قرطبه وشهد ابن عربى مأتمه.(٢)

٢ ـ لايمكن أن نحصر مؤلفات ابن رشد فى هذا المقال لكثرتها ووفرة وعمق فكرها، لقد ترك شروحات لمعظم مؤلفات أرسطو وقد آل على نفسه أن يقدم فكر أرسطو أو المعلم الأول على حقيقته كما فهمها وله فى ذلك شروحات: أكبر وأوسط وتلخيص، من هنا وصف دانتى

(*) نائب رئيس البطريركية الكاثوليكية.

ابن رشد بأنه الشارح الأكبر لأرسطو، كما اتهمه المتصوف العربى عبدالحق بن سبعين بقوله: هذا الرجل - ابن رشد - كرس حياته لشرح أرسطو، ومشى على خطاه ليس فقط فى كر الفلسفى بل فى مختلف نواحى أفكاره، فلو قال أرسطو إن إنساناً هو واقف وجالس فى آن واحد لقال ابن رشد القول ذاته، والكثرة من فلسفته إنما مصدرها أرسطو سواء شرحها سواء قلدها دون شرح ولم يكن له حظ من الخيال أو الحدس أو الذكاء.. ومع ذلك فقد كان رجلاً كاملاً، متحفظاً، متزناً، معترفاً بضعفه، وليس لنا أن نتكلم عن ثمار فكره الخاص فهو ليس إلا شارحاً لأرسطو.[٣]

وقال عنه أرنست رنان الفرنسى قولاً، ردده فرح أنطون فى جريدة الجامعة (القاهرة ١٩٠٣م) إن الإسلام قتل الفيلسوف فى شخصية ابن رشد[٤]، كما أخذ القديس توما فى كتبه عن ابن رشد أكثر من خمسمائة نصاً.[٥]

لقد ظلم ابن رشد فى عصره، وعلى مر التاريخ، ظلمه بعض المفكرين الإسلاميين، كما ظلمه بنوع خاص المتكلمون الذين لم يفهموا فكر الفيلسوف ولاسيما أنه كتب كتابه «تهافت التهافت» وهو كتاب ضخم يتتبع نصوص الغزالى فيدحض أقواله، مبيناً مافيها من تناقض واضح مستشهداً بكتب أخرى للغزالى، كما أن له ثلاثة كتب تبحث بالتوفيق بين الحكمة والشريعة أو بين العقل والوحى.

٣ - نحاول فى اجتهاد قد يخطىء وقد يصيب البحث فى فكر ابن رشد، الذى له ملامح إنسانية رائعة سامية، تنم عن أفق واسع وعبقرية فذة، ملك ناصية التفكير الفقهى وناصية التحليل الفلسفى دون أن يسبح فى تيار الآراء المنتشرة فى عصره أو يخضع عقله لما سار عليه القدماء، ولا شك أن فكره قد أسهم فى النهضة العقلية لحضارة الإنسانية الحديثة دون مبالغة فى هذا القول، وبادىء ذى بدء نقول إن ابن رشد بالرغم مما ألصق به من تهم الكفر، وقد طرد من قرطبة على عهد أبى يوسف المنصور الموحدى، وبالرغم من تجاهل بعض المفكرين المسلمين له إلا أن فلسفته انتقلت إلى الغرب عن طريق الترجمة التى قام بها بنوع خاص فلاسفة يهود وكانت هذه الفلسفة المنارة الهادية لعصر النهضة، وتحرير العقل، وبخاصة رمزاً لسماحة الفكر العربى وآفاق الفكر الإسلامى.

ويرتكز مقالى على رؤية ابن رشد فى نقطتين:

(أ) الحقيقة المطلقة، واحدة، لايمتلكها أحد، والأديان كلها تسعى للبحث عن هذه الحقيقة، والوحى طريق للمعرفة وسبيله التأمل، والتراث الروحى للبشرية يتكامل.

(ب) مكانة العقل، لا يعلو عليه أمر، لا يتعارض مع الوحى أو الدين، له طريقة فى البحث عن الحقيقة، وسبيله التحليل والمنطق، والقياس، لا تقدم ولا تنوير إلا إذا نشط العقل.

أولاً : وحدة الحقيقة المطلقة

سيطرت أفكار فلسفية خلال العصو الوسطى، اعتبرت من الأسس الثابتة فى الفكر الإنسانى ويمكن أن نضعها فى النقاط التالية:

١ ـ العالم أزلى.

٢ ـ الله الخالق، الحقيقة المطلقة، لا يهتم بالأمور التفصيلية ومن ثم ففكرة العناية الإلهية ليست حقيقية.

٣ ـ لا شىء اسمه الخلود للفردية وبالتالى الإنسان مجبر غير مخير، ولا تقع عليه مسؤولية أدبية وليس للمخلوقات إرادة حرة.

٤ ـ الفلسفة تناقض مع علوم الإلهيات (اللاهوت والفقه) ومن ثم ينبغى إهمال البحوث اللاهوتية، حتى لا نقع بين اللاهوت وبين الفلسفة فيما يسمى بالحقيقة المزدوجة فهذا مذهب من نسج الفكر اللاتينى فى فهمه لفلسفة ابن رشد.

وبالرغم من أن القديس توما الأكوينى اعتبر ابن رشد قد ارتكب الخطأ الأكبر حين وافق أرسطو على المبدأين الأولين، أزلية العالم، وغياب العناية الإلهية، فاعتقد أن فكر ابن رشد لا يحتمل هذه التهمة[٦]وهذا نص لابن رشد من كتابه «الكشف عن مناهج الدولة ـ الفصل الثالث»:

«يجب الإقرار بما جاء به الوحى وما علم به الإسلام دون البحث فى علم الله، علماً زمنياً أو غير زمنى».[٧]

الله، تبارك وتعالى، الوجود، الإنسان ومصيره، تلك حقائق هى موضوع الأديان، وفى الوقت ذاته موضوع العقل والفلسفة، أو تلك قضية الوحى، وقضية العقل، فالوحى فى كل الأديان رؤية قد تختلف من دين إلى دين، ومن مذهب إلى مذهب ولكنها تنتهى عند نقطة لقاء أن الله موجود، والوجود واقع حى، والعقل فى الإنسان شعاع من نور الخالق وهو كائن رئيسى فى هذا الوجود والمصير الإنسانى لايعرف الفناء أو العدم فتلك كلمات «الفناء ـ العدم» ليس من الدين أو العلم فى شىء.

لقد استخدمت الفلسفة عند قدماء الشرقيين كأداة لخدمة الدين، واستخدمت فى العصور الوسطى كأداة للتوفيق بين العقل والوحى، أو بين الحكمة والشريعة واستخدمها المسيحيون من علماء اللاهوت شرقاً وغرباً وعلماء الكلام فى الإسلام للذود عن العقيدة الدينية، ومن ثم حدث خلط شديد بين رسالة الوحى ورسالة العقل، ومن أمثلة ذلك، يرى القديس انسيلم (توفى ١١٠٩ م) أن الإيمان ضرورى للعقل، وهو شرط لصحة تفكيره، وقد

ساعد تصور المسيحية لله على ذيوع المذاهب والتفسيرات المتعددة، وكلها تجعل حجر الزاوية فى الفكر رد على كل مافى الكون من ظواهر وأفعال وحركات إلى الله.[٨]

ومن هنا نشأت خصومة بين الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية، وبالرغم من اختلاف جلى بين رؤية المسيحية لله، ورؤية الإسلام لله إلا أن المتكلمين فى الإسلام دفاعاً عن العقيدة دخلوا المعركة وقللوا من شأن العقل سمواً بالعقيدة الدينية.

وقد أشار أرسطو منذ البدء أن البحث فى الحقائق المطلقة مصدر خلاف فى الرأى بين البشر ومصدر الفساد أيضاً فى العلوم[٩] وقد تصد ابن رشد لهذه القضية وهو من الفلاسفة المسلمين الذى حاول أن يضع رؤيته الفلسفية فى مواجهة رؤية المتأملين والمتصوفين الذين ينكرون سمو العقل ورسالته مؤكداً على عدم التناقض بينه وبين الوحى، وكان اعتماده فى المقام الأول على الأصول الإسلامية الكامنة فى عقله وكيانه الدينى والفلسفى وفى موهبته الفطرية للتأمل والتحليل وخبرته كقاضٍ عايش طبقات مجتمعه مما عمق ثقافته وأوضح موقفه فى كتابيه:

«فصل المقام فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال».

و«الكشف عن مناهج الأدلة فى قائد الملة».

وقد ألفهما وقد بلغ الخامسة والخمسين من عمره، فانتقال عدوى الصراع بين الفلسفة والدين من الفكر المسيحى إلى الفكر الإسلامى دفعه إلى محاولة تصحيح الموقف شأنه شأن بقية الفلاسفة المسلمين، ويبدو من غير المنطقى القول بأن ابن رشد لم يتأثر بالتيارات الفكرية السائدة آنذاك كالأفلاطونية الحديثة وأفكار إخوان الصفاء وهو يحيا فى منطقة جغرافية بلغ فيها العالم الإسلامى أوج تداخله مع الغرب المسيحى وسيطر عليه مناخ ثقافى مختلف عن الشرق الإسلامى.[١٠]

انطلق ابن رشد فى كتابه «فصل المقال» من معنى الآية القرآنية الصريحة التى تقول: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسن وجادلهم بالتى هى أحسن﴾
(سورة النحل:١٢٥).

ووضع ابن رشد رؤياه فى وحدة الحقيقة، وفى وحدة الغاية والهدف من الوحى على مبادىء واضحة:

(أ) يقول فى تعبير له: الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية، مصطحبتان بالطبع متحاباتان بالجوهر[١١]، فليس بينهما صراع أو خصومة.

(ب) الوحى له ظاهره وله باطنه ولم يكن ابن رشد فى الإسلام أول من ذهب إلى التأكيد

بأن فى كتاب الله المنزل على النبىﷺ معنى ظاهراً ومعنى باطناً أو قل عدة معانى باطنه، فابن رشد شأنه شأن جميع الباطنيين، وهو على يقين ثابت من أن كشف المعنى الباطنى للدين فى غير مكانه وفى غير أوانه وتدخل الجهلة أمر يؤدى إلى أسوأ المآسى النفسية والاجتماعية وهو يعلم تماماً أن الأمر يتعلق دائماً بحقيقة واحدة بعينها تظهر على مستويات من التأويل والإدراك، فمن الظلم القول بأن ابن رشد قال بوجود حقيقتين متعارضتين أو «بالحقيقة المزدوجة» فذلك افتراء عليه، ولعل أرنست رنان وغيره أسرفا فى ذلك، ويحذر ابن رشد من أن يترك تفسير الوحى لمن ليس له كفؤاً جديراً.

(ج) الطريق إلى معرفة الحقيقة فى الدين والوحى هو التأمل والورع وليس المنطق أو التحليل وهذا ما سيردده فيما بعد الفيلسوف ديكارت، وكانط، فقد أعلن ديكارت ما أعلنه ابن رشد بأن منهجه الشكى لا ينطبق على الحقائق الموحاة، فمن قوله ليس للعقل سلطان على الوحى، وإن كان قد استخدمه بعده مفكرون فى نقد الأديان.

(د) دافع ابن رشد عن سلطان العقل وعن دوره وتصدى للمتأملين والمتكلمين وفند آراء الغزالى فى كتابه «تهافت التهافت» وأكد دور العقل فى الكشف عن الحقيقة ورفض بجلاء أى انتقاص لرسالته وأعلن فى وضوح «الحق لا يضاد الحق» والنظر البرهانى لا يؤدى إلى مخالفة ما ورد به الشرع.[١٢]

بل يمتد أفق فكر ابن رشد إلى أبعد من ذلك ويرى أن الأديان جميعاً تهدف إلى تعميق الفضيلة فهى للحكمة مصدر لا للصراع والتمرد، إذ تأمر بإعمال العقل وتدبر الوجود، غايتها واحدة وإن تشعبت طرقها، وهو لم يفعل ما فعله الغزالى فى كتابه «رد الجميل لألوهية المسيح» حيث هاجم العقيدة المسيحية[١٣]، وقد ارتكز الغزالى على تحليل عقلى يرفض عقائد دينية لا تخضع للمنطق أو للمقاييس الفلسفية، مناقضاً ذاته فى كتب أخرى يرفض أن يضع الدين تحت مقاييس المنطق العقلى.

ويرى ابن رشد أن الأديان لا تقاس بمقاييس الجدل وله تعبير شهير لعله أخذه من أرسطو فهو يقول: «أيها الناس أنا لا أجزم أن ما تسمونه بالعلم الإلهى علم خاطىء ولكنى أقول إننى عارف بالعلم الإنسانى».[١٤]

مكانة العقل:

لست مسرفاً إذا قلت أن ديكارت استوحى عبارته الشهيرة «أنا أفكر إذاً أنا موجود» من فكر ابن رشد، ثم جاء أرنست رنان ليجعل من ابن رشد مفكراً حراً، واتخذت فلسفة ابن رشد وسموه بالعقل نقطة انطلاق للتفكير الحر، فابن رشد يرى أن مهمة الفلسفة ووسيلتها العقل يستحسنها

الدين ويمتدحها الوحى، فالله يأمر الناس فى القرآن الكريم بالبحث عن الحقيقة ولا تبدو حقائق الفلسفة منافية للدين إلا فى عيون الجهلة المتحاملين الذين يرهبون الفكر لأن معارفهم ناقصة، ولقد ألّف رسالتين فى هذا المجال وهما: فصل المقال، والكشف عن مناهج الأدلة.

وابن رشد لايقبل المعتقدات الشائعة، ويعتبرها موضوعة لتعليم الأخلاق وتعميق التقوى فى نفوس الناس عموماً، والفيلسوف الحقيقى فى نظره لا يسمح بأى قول ضد الدين أى دين الذى هو ضرورى لصالح البشر.

وأرسطو عنده أسمى إلهام ربانى قبل الأديان (اليهودية والمسيحية والإسلام) ويعترف ابن رشد أنه ينبغى أن يكشف للعامة كشفاً جزئياً عن الحقيقة الإلهية ويهىء ذلك لكى يوافق الحاجات العملية، وفى الدين معنى حرفى يستطيع العامة الوصول إليه ومعنى «تأويلى» يكشف عن الحقائق الخفية التى يجب ألا تنشر على العامة، وبذلك يعارض موقف ابن باجه أو ابن الصايغ وفى الغرب معروف باسم افامباس Avempace وله رسالة سبب شهرته وعنوانها «تدبير المتوحد» وكان محباً للعزلة، ميالاً للموسيقى، لم يكن موافقاً على آراء الغزالى فى تبسيط المشكلة بإثباته أن التبصر فى العالم الروحى يهبه الإشراق الإلهى[١٥] وقد توفى سنة ٥٣٣ هـ = ١١٣٨م ولا شك أن ابن رشد تأثر بأبى بكر بن باجه، وكان ابن رشد يقبل على الحوار الفلسفى والدينى على أن يكون محصوراً بين المثقفين القادرين على فهم مضمونه ويرى عدم إشاعة الحوار بين العامة الذين هم فى خوف دائم من تقويض إيمانهم البسيط، وقد قسم عقلية الناس إلى فئات ثلاث:

١ ـ فئة يكون اعتقاد أصحابها مبيناً على البرهان ثمرة المنطق اليقينى وهم الذين يتجه إليهم الفيلسوف.

٢ ـ فئة الذين يبنون إيمانهم على صدق من يعلمهم دون مناقشة ولا دخل للتفكير فيها وقد يضرهم أن نضع برهان العقل أمامهم فلن نخلق لهم إلا الشك والقلق.

٣ ـ فئة ثالثة بين هاتين الفئتين، وهى التى تملك الحدس والقدرة على الجدل للدفاع عن إيمانهم، هذه الفئة لايمكن الدخول معها فى حوار يرفع ثقتهم فوق مستوى صدق المعلم. وفى نظر ابن رشد الذى عارض المتكلمين من أهل السنة أن الغزالى أسوأ من فيهم فهو «مرتد عن الفلسفة».

ختامـــاً:

نحن إذن أمام عقل عربى، مسلم، عاش فى زمان الحروب الدينية خلال العصور الوسطى، اخترق حجب الزمان والمكان، ووضع للحوار الدينى أسساً سامية، وملك أفقاً واسعاً

وتسامحاً إنسانياً رائعاً يعد نموذجاً للفكر العربى الإسلامى الشامل.

أكد على أن الله تبارك وتعالى هو سبحانه العلة الأولى للوجود، الكائن المطلق والحقيقة المطلقة كما أكدت التوراة حين سأل موسى عليه السلام ربه من أنت فأتاه الجواب «أنا الكائن» العهد القديم (التوراة» سفر الخروج ٣ : ١٤، وأكده الإنجيل «أنا هو الرب إلهك لا يكن لك إله غيرى» ثم ثبته القرآن الكريم ووضع قاعدته الكبرى ﴿الله لا إله إلا هو الحى اليوم لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ (البقرة: ٢٥٤).

فالله مصدر كل وجود، وكل حياة، والفلسفة منذ سقراط وأفلاطون وأرسطو أفاضت فى ذلك فيضاً زاخراً، والله الحق المطلق، والخير المطلق، والجمال المطلق، لا يمتلكه أحد، ولا يدركه أحد، ولا تلم بعظمته عقيدة أو فكر.

والحوار الدينى أسمى ألوان الحوار، والفلسفة أرقى أنواع الفكر ولا يتصدى للحوار الدينى إلا من ملك ناصية الورع والتقوى فى خبرة روحية عميقة وامتلك فكراً عميقاً، وأفقاً واسعاً. والعقل هو الشعاع الإلهى فى أعماق الإنسان، والحق لا يلد إلا الحق، والخلود للعقول والأرواح.

تلك مبادىء سامية وضعت ابن رشد فى مصاف مفكرى الإنسانية حملوا مشعل التنوير وأول خطوات التنوير والتقدم، التسامح الفكرى.

مراجع المقـال

(١) دى ساسى اوليرى ـ الفكر العربى ومركزه فى التاريخ ـ بيروت ـ ص ٢١٤.

(٢) هنرى كوربان ـ تاريخ الفلسفة ـ بيروت ـ ص ٣٥٨.

(٣) Ibn Rushd - (Averroes) Dominique Urvoy ـ باريس ١٩٩٦ ـ ص ١٥٣.

(٤) المصدر السابق، ص ١٥٦.

(٥) المصدر السابق، ص ١٦٥.

(٦) المصدر السابق، ص ١٣٢ ـ ١٣٣.

(٧) المصدر السابق، ص ٩٢.

(٨) د. يحيى هويدى ـ مقدمة فى الفلسفة العامة ـ القاهرة ـ ص ٤٨.

(٩) Ibn Rushd - (Averroes) Dominique Urvoy ـ باريس ١٩٩٦ ـ ص ١٣٥.

(١٠) هنرى كوربان ـ ص ٣٥٨.

(١١) سلسلة اقرأ ـ الدين والفلسفة والتنوير ـ د. محمود حمدى زقزوق ـ ص٦١.

(١٢) المصدر السابق، ص ٨٤.

(١٣) المصدر السابق، ص ٢٧٦.

(١٤) المصدر السابق، ص ٣٦٨.

(١٥) المصدر السابق، ص ٣٤٤.